إنّما يؤخَذ الدِّين من العلماء

للإمام عبد الحميد بن باديس

تحقيق أ. محمد الصالح رمضان*

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخذري رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلّم قال: " كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمّل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على رجل عالم، فقال إنّه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومَن يحول بينه وبين التوبة! انطلق إلى أرض كذا وكذا فإنّ بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتّى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: "جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى" وقالت ملائكة العذاب: "إنه لم يعمل خيرًا قط". فأتاهم ملَك في صورة آدمي فجعلوه بينهم أي حَكَمًا فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة".(متفق عليه)

الألفاظ

الراهب هو العابد وكانت الرهبنة فيمن قبلنا بالانقطاع عن النّاس والتفرغ للعبادة. ابتدعها أهلها دون أن يكتبها الله عليهم:

---

*. من كتاب "من هدي النّبوة" للإمام عبد الحميد بن باديس (جمع وتصنيف ومراجعة وتعليق وتقديم الأستاذ محمد الصالح رمضان).

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾[1]، ثم جاء الإسلام فشرّع الجمعة والجماعة فأبطل الانقطاع عن الناس للعبادة إلاّ مَن فرّ بدينه أيام الفتنة خوفًا على نفسه منها والعالم مَن له دراية وملكة واشتغال بالعلم والمقابلة ما بينهما في الحديث تقتضي أن الراهب لم يكن عنده من العلم ما يقال في صاحبه عالم والعالم لم يكن عنده من الانقطاع للعبادة ما يقال في صاحبه راهب.

قال الإمام محمد السنوسي – رادّا على الأبي-: تسمية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الرجل الثاني بالعالم والأول بالراهب يدل على أن الراهب ليس بعالم والحجة فيما دلّ عليه لفظه صلّى الله عليه وآله وسلّم من أن كل واحد.. إنما ثبت له في نفس الأمر معنى الوصف الذي أطلقه عليه. وأما دلالة الدال على الراهب وهو إنما سأل عن العالم فليس فيه دليل على أن الراهب كان عالما لاحتمال أن يكون الدال رجلا جاهلا ولا يعرف العالم إلاّ من هو عالم لا سيما الرهبانية.

كثيرًا ما يعتقد الجهلة ملازمتها للعلم والترهيب إن أسلم أنه يقتضي العلم فإنما يقتضي العلم بما يحتاج إليه في ترهبه ولا يكون من مترهب جاهل.

المعنى

هذا رجل جنى هذه الجنايات العديدة ثم ذكر الله تعالى فأراد الرجوع إليه فسأل عن أعلم أهل الأرض ليوجد له سبيلا إلى ذلك فدلّه من دلّه على راهب- لاعتقاد العامة العلم في كل مظهر للتعبد- فلم يجد عنده مخرجًا من جنايته- فكمّل بقتله المائة محمولاً على ذلك باليأس والجرأة والاستهانة بقتل النفس ولكنه بقي مع ذلك يطمع أن يجد سبيلا فدلّ على عالم فأفتاه بإمكان التوبة مستدلا بأنه لا شيء يحول بينه وبينها وأشار عليه بمفارقة أرضه التي ضرى فيها على الجنايات. فإنها كانت أرض سوء

---

1. سورة الحديد، الآية 27.

عليه وأمره أن يذهب إلى أخرى بها قوم صالحون يعبدون الله ويسيرون بطاعته فيصاحبهم ويعبد الله معهم لإصلاح نفسه بمعاشرة الصالحين وتحقيق توبته بالعمل الصالح معهم.

فذهب الرجل على هذه النية وأدركه الموت قبل أن يصل إلى تلك الأرض واختصمت ملائكة الرحمة وحجتهم نيته التي خرج عليها وملائكة العذاب وحجتهم أنه لم يفعل عملا صالحًا.

فكان القضاء لملائكة الرحمة تغليبًا لجانب القصد والنية وتأيدت النية بجده في السير إلى الأرض التي قصد حتّى كان أقرب إليها من الأرض التي خرج منها.

الأحكام

1. في الحديث لزوم السؤال للجهال.
2. وفيه أن أهل العلم هم الذين يسألون عنه لا غيرهم وإن كان أكثر عبادة.

ولذا قال مالك رحمه الله: لا يؤخذ العلم عن أربعة:

أ. سفيه معلن السفه.

ب. وصاحب هوى يدعو إليه.

ج. ورجل معروف بالكذب في حديث الناس وإن كان لا يكذب على الرّسول عليه وعلى آله أفضل الصّلاة والسّلام.

د. ورجل له فضل وصلاح لايعرف ما يحدث فيه (ذكره ابن عبد البر في جامع العلم).

وفيه صحة توبة القاتل وهو مذهب جمهور السلف، وهذا الحديث من أدلتهم.

عبرة وتحذير

العلم قبل العمل ومن دخل في العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاحتلال وربما اغتر به الجهال فسألوه فاغتر هو بنفسه، فتكلم بما لا يعلم.. فضلّ وأضلّ. فهذا الراهب قد دلّ عليه من دلّه عليه يحسبه أعلم أهل الأرض.

فسئل فأجاب بما لا يعلم فعادت مصيبة ذلك عليه وعلى سائله ولو دلّ هو سائله على غيره من العلماء لسلم هو وسلم السائل.

فحذار من التقصير في العلم اللازم للعبادة وحذار من الكلام في دين الله والإفتاء للناس بغير علم مؤهل لذلك وحذار من صرف الناس عن العلم وأهله إذا رأيتهم قد افتتنوا بك.

استشهاد

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجة وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما وخرّجه ابن عبد البر في جامع العلم عنه وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن "فقيهًا واحدًا أشد على الشيطان من ألف عابد". وواقع هذا حديثنا مما يشهد لذلك فقد رأيت ماذا جرّ الراهب على نفسه وعلى غيره وكيف أنقذ العالم ذلك الشرير من الهلاك.

نسأل الله الفقه في الدين وعمل الصالحين وتوبة الأوابين لنا ولجميع المسلمين. آمين يا ربّ العالمين.